جوانب من قواعد الفقه العمراني في تصميم المدن الإسلامية القديمة.

د.بن زغادي محمد
قسم علم الآثار/جامعة تلمسان/الجزائر
Email:benzghadi13@yahoo.fr

الملخص:
شكلت القواعد الفقهية المنبثقة عن تعاليم الدين الحنيف المرتكزة على ما جاء في القرآن الكريم والحديث الشريف القاعدة العامة التي ينبني عليها النسيج العمراني للمدن الإسلامية القديمة سواءً بالمشرق أو المغرب الإسلامي،الأمر الذي حقَّق توازناً وربطاً عضوياً بين الجانب الروحي والمادي للسكان،وقد تبوأت القواعد الفقهية مقعداً شريفاً في صفحات المؤلفين قديماً،حرصاً منهم على زيادة الوعي بأهميتها وأثرها في تنظيم البناء حتى لا يعلوا أحد على أحدٍ،ولعَّل كتاب الإعلان بأحكام البنيان لأبي عبد الله محمد بن ابراهيم اللخمي المعروف بابن الرامي،وكتاب الجدار لعيسى بن موسى التطيلي أبلغ مثال على ذلك، ومن بين أهم القواعد الفقهية التي أعتمدت في بناء المدن العتيقة قاعدة ضرر ولا ضرار، التي تمنع منعاً باتاً أي شخص إلحاق الأذية أثناء بناء مسكن أو غيره من العمائر بمن يجاوره، فضلاً عن ذلك هناك قاعدة أو إن صحَّ تعبير مبدأ يسمى بالتوجه نحو الداخل، وهو يعني الحفاظ على حرمة أهل البيت من أنظار العامة من الناس عبر فتح صحن المسكن وإحاطته بحجرات وغرف تفتح نوافذها عليه،وذلك تجسيداً لتعاليم الدين الحنيف،ويبدو أن مثل هذه القواعد الفقهية قد اختفت إلى حدٍّ بعيد من المفهوم العمراني الحديث في مدننا المعاصرة.

الكلمات المفتاحية:المدينةالقديمة،المساكن،القواعد الفقهية العمرانية.

Aspects of urban jurisprudence in the design of ancient Islamic cities

Dr:Benzeghadi Mohammed.
Department of Archeology/University of Tlemcen/Algeria

Abstract:

The jurisprudential rules emanating from the teachings of the true religion based on what is stated in the Holy Quran and Hadith constitute the general rule on which the urban fabric of the ancient Islamic cities is based, whether in the Orient or the Islamic Maghreb, Which achieved a balance and an organic connection between the spiritual and physical

side of the population,And the jurisprudential rules have taken a clear seat in the pages of the authors of ancient times, In order to raise awareness of the importance and role in the organization of the building so as not to mount one on anyone, and perhaps the book of the Declaration of the provisions of the structure of Abu Abdullah Muhammad bin Ibrahim al-Lakhami, known as Ibn al-Rami and The book of the wall of Issa ibn Musa al-Tilili is best example,Among the most important jurisprudential rules adopted in the construction of ancient cities is the base of no harm, no foul,Which strictly prohibits any person from causing harm during the construction of a dwelling or other buildings to those around him, Add to that there is a rule and if the correct expression began to be called inward,It means preserving the sanctity of the people of the house from the public view of the people through the opening of the courtyard inside the house and surrounded by rooms that open windows on it, This is an embodiment of the teachings of the true religion,It seems that such doctrinal rules have largely disappeared from the modern urban concept in our contemporary cities.

Keywords: Urbanization,Ancient city, Houses,Principles of Urban Jurisprudence.

١-مفهوم المدينة:

تعد الخطة العمرانية وتنظيمها العمراني المحكم بالمدن القديمة،واحدة من إبداعات الحضارة العربية الإسلامية في مجال العمران،إذ تضمنت بين أحيائها ودروبها تعبيراً صريحاً عن الحياة الحضرية وثقافة المجتمع الذي صنعها،مشكلة بذلك مرآة عاكسةً لمدى التقدم والرقي الذي خلَّفه الإنسان منذ القدم،وهي تعد الركن الخامس في الملك،لذلك قال عنها الخليفة العباسي المتوكِّل بعد بنائه المتوكلية:"الآن علمت أني ملك إذ بنيت لنفسي مدينة سكنتها".(١)

على الرغم من كثرة العلماء المعنيين بتعريف المدينة إلاَّ أنهم لم يعطوا تعريفاً واضحاً لها،لأن ما ينطبق على مدينة لا ينطبق على أخرى،فعلى سبيل المثال قدَّمها العلاَّمة عبد الرحمن بن خلدون بقوله:"...الإنسان مدني بالطبع لابُّد له من الاجتماع الذي هو المدينة،أو في اصطلاحهم هو العمران...".(٢)

وإذا ما اعتمدنا على الناحية اللغوية نجد أن كلمة مدينة مشتقة من كلمة"دين"التي ينبثق أصلها من الآرامية والعربية،أي أن أصلها سامي،وعُرفت المدينة عند الأكاديين

والأشوريين بالدين أي القانون،وهناك كلمة الدَّيَان التي يُقصد بها في الآرامية والعبرية القاضي،وتتوافق هذه التفسيرات مع ما جاء به القرآن الكريم،إذ اتضح من التفسير القرآني أن كل المواضع التي أُطلق عليها مدينة كان عليها ملوك يتداولون فيها الجانب القضائي والديني والسياسي،من هنا يتضح تميز المدينة عن القرية في القرآن الكريم،وذلك على أساس التقاضي الذي أشارت إليه الآرامية مسبقاً،وفي الحديث النبوي الشريف عن بن عمر قال سمعت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وهو على المنبر يقول:«يَأْخُذ الدَّيَانُ سَمَوَاتِهِ وَأَرْضِهِ بِيَدِهِ وَقَبَضَ يَدَهُ وَجَعَلَ يَقْبِضُهَا وَيَبْسِطُهَا،ثُمَّ يَقُول أَنَا الجَبَّار أَيْنَ الجَبَّارُون أيْن المُتَكَبِرُون؟وتَمَيَّلَ رَسُولُ الله عَن يَمِينِه وَعَنْ يَسَارِهِ،حَتىّ نَظَرْتُ إِلَى المِنْبَر يَتَحَرك من أسْفَل لِشَيءٍ مِنْه حَتَّى إِنَّنِي لَأَقُولُ أَسَاقِطٌ هو بِرَسُول الله صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَّم»[٣]،يتبين من ذلك اتفاق معنى ما جاء به هذا الحديث مع اشتقاق الكلمة من الدين والمُلك والقضاء،ومن جهة أخرى أشارت بعض المعاجم العربية إلى أن كلمة مدينة ترجع إلى كلمة دين،وهي كلمة مشتقة من كلمة (وَدَنْتُهُ) أي (مَلَكْتُهُ)،فهو مدين مملوك،كمرادفات وبدائل للفظ المدينة،هناك الحَاضِرَة بدلاً من المدينة،والحَضَرِي بدلاً من المدني والتَحَضُر كمقابل للتمدن أيضا من الاشتقاقات اللغوية لكلمة مدينة الفعل مَدَنَ،مثلاً نقول مدن الشخص،أي أتى المدينة،ومَدَّنَ المدائ أي بناها ومصرها،ومَدَّنَه أي نقله إلى حالة الرقي،ومدينة عتيقة أي ضاربة في القدم.[٤]

أما اصطلاحاً،فهناك من ربطها بالجانب الديني مصداقا للحديث النبوي الشريف:«لَا جُمُعَةَ وَلَا تَشْرِيق وَلَا فِطْر ولا أَضْحَى إلاَّ فِي مِصْرٍ جَامِع»،وفي حديث آخر:«إلاَّ فِي مِصْرٍ جَامِع أَوْ مَدِينَةٍ عَظِيمَة»[٥]،واتفق الفقهاء أن المصر هو وطن مجتمع المنازل،والمدينة تجسد ذلك بصورة واضحة،ويستند إلى هذا الحديث أبي حنيفة النعمان مؤكداً أن صلاة الجمعة إنما تختص بها الأمصار دون غيرها وأنه لا يجوز إقامتها في القرى،مشيراً إلى أن المصر ذلك المكان الذي يوجد فيه سلطان يقيم الحدود وقاض ينفذ الأحكام أي المدينة،ويعرفها بعض الجغرافيين مثل المقدسي بقوله:"...وقد اختلف في المضار فقالت الفقهاء المصر كل بلد جامع تقام فيه الحدود ويحله أمير

بنفقته ويجمع رستاقه...وأما نحن فجعلنا المصر كل بلد حلَّه السلطان الأعظم،وجُمعت إليه الدواوين وقلدت منه الأعمال وأضيفت إليه مدن الأقاليم مثل دمشق والقيروان...".(٦)

أمَّا بن منظور فيُعرفها من جانبها المادي قائلاً أن المدينة هي:"الحصْن يبنى في أصْطمّة(*) من الأرض،وكل أرض يبنى عليها حصن في أُصطمَّتِها فهي مدينة (٧) ،ومن الجانب الاجتماعي يعرفها فيروز آبادي بقوله"...المدينة تعادل ستة عشرة بلداً،والمدائن هي مدينة كسرى قرب بغداد سميت كذلك لكبر حجمها وكثرة عمرانها..."(٨)،يتوافق هذا التعريف مع ما أشار إليه القزويني في حديثه عن نشأة المدينة،إذ قال:"...أنه لو اجتمعوا في صحراء لتأذوا بالحر والبرد والمطر والريح ولو تستروا في الخيام لم يأمنوا مكر اللصوص،ولو اقتصروا على الحيطان والأبواب لم يأمنوا صولة ذي بأس،فألهمهم الله تعالى اتخاذ السور وحفر الخندق والفَصِيل وهو الحائط القصير،فحدثت المدن والأمصار والقرى والدِّيار،واتخذوا للمدن سورًا حصيناً مانعاً،وللسور أبواباً حتى لا يتزاحم الناس بالدخول والخروج...ثم اختصت كل مدينة لاختلاف تربتها وهواءها بخاصية عجيبة..."(٩)،لذلك عُدت المدينة أساس التحضر ومرآة عاكسة لمدى الرقي الحاصل في الجانب المعماري والثقافي والاجتماعي.

ومن المفاهيم الحديثة للمدينة أنها تجمع سكاني وعمراني كبير الحجم،كثير الشوارع والبنايات العمرانية التي انكب الإنسان على تشييدها كمأوىً له منذ القدم،والتي أدَّت دوراً مهماً في تشكيل ثقافته وتاريخه،أما المعماري النمساوي كاميبوسيط"Camillo Sitte" فقد استند في تعريفه للمدينة على ما قاله أرسطو:"المدينة هي ذلك المكان الذي يوفر الأمن والسعادة لمن يسكنها"،ويضيف كاميوسيط قائلاً:"...لبلوغ ذلك الهدف لا تكفي الحسابات الرياضية الهندسية فقط،لكن لا بد من وجود لمسة معماري فنان...".(١٠)

٢-عوامل تأسيس المدينة:

لم تنشأ المدن قديماً من العدم،بل ساعدت مجموعة من العوامل على تكونها ومن ثَمّ تطورها،ونجد في مقدمتها وفرة الماء الذي قال عنه تعالى:﴿وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍ﴾(١١)،حيث تزداد الكثافة السكانية في المناطق الغنية بالأمطار وتتناقص بالأماكن الجافة،ثم عامل الموقع إذ يساعد المدينة في الدفاع عن نفسها،بوصف الأمن واحد من

اللَّبنات الأساسية في نشأة المدن،من الشروط التي أوجبها المخطط المسلم في الموقع أن يكون حصيناً بطبيعته،مستنداً على هضبة وعرة من جبلٍ كمدينة تلمسان الموجودة على منحدر هضبة لالَّة ستي ومدينة ندرومة الموجودة على سفح جبل فلاوسن،ومدينة هنين التي تستند هي الأخرى على سفح جبل المنزَل المقابل للبحر مباشرة،إدراكاً منهم لأهمية الأمن في حياة الأفراد،وهو الذي قال عنه عَزَّ وجَّل في القرآن الكريم على لسان سيدنا إبراهيم﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا البَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَّعْبُدَ الأَصنَامَ ﴾[١٢]،تعكس هذه الآية الكريمة بجلاء مدى أهمية الأمن في نشأة المجتمعات وتطورها منذ القدم،لهذا عدَّ الفقهاء الأسوار والقلاع والحصون من البناء الواجب،هناك بعض من الدارسين مثل عبد الرحمن بن خلدون من ربطوا مقدار رفاهية المدن مع مقدار ما تكتسبه من قوة،وما توفره من أمن لسكانها معبراً عن ذلك بقوله:"...والسبب في ذلك أن القبيل إذا حصل لهم الملك والترف كثر التناسل والولد...فازدادوا به عدداً إلى عددهم وقوة إلى قوتهم...".[١٣]

تكشف الشروط السابقة الذكر عن وجود نظرة عقلانية في تخطيط المدن الإسلامية تنم عن الاهتمام الكبير بالجانب الوظيفي الاجتماعي الذي يؤكد أصالة المدينة الإسلامية المستمدة من تعاليم الدين الحنيف، وفي السياق نفسه حدَّد بن الربيع في مُؤلَّفه"سلوك المالك في تدبير الممالك على التمام والكمال"ستة شروط لاختيار الموقع الملائم لتشييد المدينة قائلاً:"...سعة المياه المستعذبة ...واعتدال المكان وجودة الهواء،والقرب من المرعى والاحتطاب،وتحصين منازلها من الأعداء الذعار،وأن يحيط بها سور يعين أهلها..."[١٤]،كما أوجب ثمانية شروط أخرى،يُراعيها الملك،ولكن هذه المرة في كيفية تنظيمه للمدينة داخلياً تتمثل فيما يلي:"...أن يسوق إليها الماء العذب ليشرب أهلها،ويسهل تناوله من غير عسف،وأن يبني جامعاً للصلاة في وسطها،وأن يقدِّر عرض طرقها وشوارعها حتى تتناسب ولا تضيق،وأسواقها بحسب كفايتها لينال سكانها حوائجهم عن قرب،وأن يميز بين قبائل ساكينها...ويجعل خواصه محيطين به من سائر

جهاته،وأن يحيطها بسور مخافة اغتيال الأعداء،لأنها بجملتها دار واحدة،وأن ينقل إليها من أهل العلم حتى يكتفوا ويستغنوا بهم عن الخروج إلى غيرها..."[١٥].

بعد ابن الربيع قدَّم ابن الأزرق ما الذي يجب مراعاته في اختيار مواضع المدن قائلاً:"...أصلان مهمان:دفع المضار وجلب المنافع الأصل الأول دفع المضار وهو فرعان أحدهما:أرضي ودفعه بإدارة سياج السور على المدينة،ووضعها في مكان ممتنع إما على هضبة وعرة إما باستدارة بحر أو نهر بها...فيصعب منالها ويتضاعف تحصينها...والثاني سماوي ودفعه باختيار المواضع الطيبة الهواء،لأن ما خبث منه بركود أو تعفن لمجاورته مياه فاسدة...يسرِّع المرض للحيوان الكائن فيه لا محالة ،كما هو مشاهد بكثرة...،والأصل الثاني جلب المنافع...وذلك بمراعاة أمور أحدهما الماء كأن يكون البلد على نهر أو بإزاء عيون عذبة...والثاني طيب مرعى السائمة وقربه... والثالث قرب المزارع الطيبة لأن الزرع هو القوت الضروري...والرابع الشعراء[*]للحطب والخشب...".[١٦]

٣-الفضاءات العمرانية للمدينة الإسلامية العتيقة:

تنقسم المدن الإسلامية على اختلاف مواقعها سواءً بالمشرق أوالمغرب على ثلاثة فضاءات أساسية تجمع بين المصلحة الدنيوية والآخروية، وقد جاءت متضامة مع بعضها بعضاً، محقِّقة بذلك ترابطاً عضوياً شبيهاً بما هو في جسد الإنسان، وتتمثل تلك الأحياء في ما يأتي:

٣-١ النواة المركزية للمدينة:

تعد بمثابة الحيز الديني والتشريعي والتثقيفي للمدينة الإسلامية،تتضمن أهم المباني ذات الطابع الديني والاجتماعي،فقد تضمنت داراً للإمارة تنحصر وظيفتها الأساسية في إصدار الأحكام والتشريعات من طرف الحاكم نفسه أوتناط المهمة للأئمة والفقهاء،وقد كان يسمى المشرف عليها في مدن وعواصم المغرب الإسلامي بقاضي الجماعة فهو في الوقت نفسه الحَكَمُ والمُوَثِق،من جملة المهام الأخرى التي تخوض فيها دار الإمارة فض النزاعات ما بين الناس والتجار،وتسجيل عقود النكاح والبيع وكتابة الوصايا،ومن

بين أهم ما احتوت عليه أيضا المسجد الجامع المتميز بكبر حجمه واتساع رقعته ليتسع للكم الهائل من المصلين القادمين لتأدية صلوات الجمعة والأعياد الدينيةواستقبال الطلبة،مكوناً بذلك جامعة تُلقى فيها الدروس وتُعقد فيه الجلسات العلمية وخطب الوعظ والإرشاد،وكان يتم فيه نشر الإعلانات الملكية وإمضاء العقود التجارية.(١٧)

فضلاً عن ذلك قدَّمت هذه النواة وظيفة ثانية تتمثل في التبادل الثقافي والعلمي،فقد كان قِبلة للتعلم والتفقه في الدين عبر ما أنشئ بها من مدارس وزوايا رُصدت لها النفقات من تلك الأوقاف التي أقامها الحكام والسلاطين وبعض الأغنياء، فمثلاً في مدينة تلمسان قُدرت أوقاف مسجد الشيخ السنوسي ومدرسته بدرب مسوفة بسبع مائة وخمسة وثلاثين هكتار من الأراضي الصالحة للزراعة، أما مسجد سيدي أبي مدين فقد بلغ دخله اليومي من الأوقاف المخصصة له قرابة الرطل من الذهب، واحتوت النواة المركزية أيضاً على القصر، وفضلاً عن كونه سكن للسلطان وحاشيته،يعدُّ المقر الأول الذي تُستصدر منه الأمور الخاصة بالمدينة سواءً المتعلقة منها بكيفية تحصينها ضد الغزاة أوتنظيم أسواقها وكل ما يتعلق بأمور الرعية.(١٨)

٣-٢ الفضاء التجاري للمدينة:

لا تكاد مدينة إسلامية تخلو من هذا الحي،فهو يمثل الشريان الاقتصادي الذي من خلاله توفر لنفسها دخلاً يعود عليها بالمنفعة على المجالات الأخرى،كتنشيط خدمات الفنادق عبر تلك القوافل التجارية التي تأتي للبيع والشراء في المدينة من أقطار أخرى،لهذا يعد جانباً مهماً في مسار تكوينها ونشأتها(١٩)، كذلك يمكن لسكانها بمختلف مستوياتهم اقتناء ما يريدونه من لوازم والحصول على مجال خصب للعمل وكسب قوت العيش، يلي هذا الفضاء مباشرة النواة المركزية لربط الوظيفة السياسية والدينية بالوظيفة الاقتصادية، ويحتوي على سوقٍ لتفعيل عمليات البيع والشراء،فقد كان هذا الأخير بمثابة القاسم المشترك بين جميع المدن الإسلامية على اختلاف مواقعها الجغرافية وتاريخها.

يمكن الإشارة إلى أن كلمة سوق بالمدن العتيقة تختلف عن المعنى الحالي للكلمة، فهو ضمن النسيج العمراني للمدن العتيقة ليس بالمساحة الشاسعة بل يمكن أن يتواجد في حي عادي تنفتح به الحوانيت على الجانبين، فمثلاً تواجد سوق قرطبة على مستوى حي ضيق الأمر الذي دفع بالخليفة الأموي المستنصر بالله توسيعه عام٣٦١هـ/٩٧٢م نتيجة ازدياد الأعمال التجارية وما ترتب عنها من ازدحام أدَّى إلى عرقلة حركة السير[٢٠]،فيما يخص البضائع التي تم تداولها في الأسواق العمومية،فقد كان أصلها محلي وذات إقبال كبير من طرف السكان لجودتها، وقد تمثلت في المواد الغذائية بالدرجة الأولى،ثم المواد المصنعة من صوف وقطن وجلد، أما مكان وجودها فقد أقيمت على مقربة من ساحات المدن وأبوابها، وتميزت أسواق المدن العتيقة عموماً بميزات تمخضت عن التشريع الإسلامي في تنظيم عمليات البيع والشراء لإضفاء أكبر قدر من الشفافية وحسن التنظيم،تظهر بوضوح أثر العامل الديني في صقل الوجه العام للحياة الحضرية في شتَّى المجالات،وقد تمثلت في مايأتي:

أولاً: كان هناك توافق وانسجام في المكان الواحد من السوق بين الصناعات المتشابهة فيما بينها من حيث مادة الصنع،وكذا من حيث الهدف المتوخى من استعمالها في الحياة اليومية.

ثانياً: يتم إبعاد كل الأنشطة التي لها تأثير سلبي على الإنسان مثل الدخان والرائحة والإزعاج الصوتي والعرقلة.

ثالثاً: مراقبة المحتسب للتجار وسلعهم منعاً للغش وغيره من التعاملات غير الموافقة لتعاليم الدِّين الحنيف،والحسبة هي أمر بالمعروف إذا ظهر تركه ونهي عن المنكر إذا أُظهر فعله.[٢١]

كما كانت أماكن البيع داخل الأسواق غير محتكرة وِفقاً لما صحَّ عن الرسول صلَّى الله عليه وسلم عن أسمر بن مضرس قال:أتيت النبي صلَّى الله عليه وسلم فبايعته فقال:"مَنْ سَبَقَ إِلَى مَا لَمْ يَسْبِق إِلَيْهِ مُسْلِم فَهُوَ لَهُ"فخرج الناس يتعادون يتخاطون[٢٢]، وهناك نوع آخر من الأماكن التي خصصت للبيع والشراء في الحي التجاري تسمى

بالسويقة،سميت بذلك لصغر حجمها مقارنة بالأسواق،تحتوي على ساحة فسيحة نسبياً تتماشى مع حجم النسيج العمراني المحلي الذي تتواجد بداخله، وعلى الرغم من صغرها فقد قدَّمت لزبائنها الخدمات والسلع المختلفة الموجودة في المدينة، إذ نجد بها الجزار والخضار والبقال والكتان والحجَّام،ويتم التعامل فيها بالتجزئة فقط لأنها مخصَّصة للاستهلاك العائلي لا أكثر ولا أقل وقد ظهر أيضاً بمدن المغرب الإسلامي قديماً ما يسمى بالقيصارية وهي عبارة عن سوق يحيط بها سور عبر جوانبها الأربعة،ولها باب واحد،هناك من يرى أن اسم القيصارية مرادف للكلمة الاسبانية"Casériа" التي تعني مجموعة من المساكن،وهناك من يرى أنها للكلمة الإيطالية "Caséro"التي تعني الحصن المنيع(٢٣)، لأن مفهوم "القيصارية"معمارياً عبارة من مكان يضم عدداً من البنايات المحاطة بسور عال، في حين يرى البعض الآخر أنها اشتقَّت من اللقب الروماني قيصر وهي تعني مدينة القيصر.(٢٤)

٣-٣ الفضاء السكني للمدينة:

لعل أكثر القواعد الفقهية التي اجتهد في انتاجها الفقهاء سجلت وجودها في هذا الفضاء، وذلك لكونه الأكثر تضمناً للعمائر كما وكيفاً، فضلاً عن كونه يأوي غالبية أفراد سكان المدينة،لذلك يُعَّد هذا الأخير مرآة عاكسة لأصول التخطيط والبناء بالمدن العتيقة،من أهم عناصره المسكن الذي يُعد أحد الفنون المعمارية التي برع المعماري المسلم في إنشائها قديماً،تميزت بوجود عناصر فراغية وظيفية،وبمظهر خارجي جدّ بسيط لا يوحي إطلاقا بما يمكن أن يوجد بداخله،إذ يبدو المسكن من الخارج عبارة عن بناية صمّاء تخلو جدرانه المبنية بمادة الآجر من أية زخرفة إلاَّ في حالات نادرة،تكونت معظم المساكن الإسلامية من طابقين، أما فتحات نوافذ الطابق الأرضي فقد كانت مفتوحة على وسط الدار لتحقيق أكبر قدر من الخصوصية لساكنيه،وهو ما يُعرف بمبدأ التوجه نحو الداخل(٢٥)،أما بالطابق العلوي فلم توجد إلاَّ فتحات ضيقة وقليلة للحفاظ على حرمة أهل المسكن تبعاً لتعاليم الدين الحنيف، وبالنسبة لتخطيطه الداخلي فقد تألف من المدخل ووسط الدار والبيوت والمخزن والسطح، فضلاً عن جناح المعيشة

وجناح الرجال وجناح الخدمات الذي يشمل المطبخ والحمام والمخزن وقد تميز مظهره الخارجي بالبساطة وبشكل مربع أومستطيل يتراوح ارتفاعهما بين٤م و٨م عموماً يتوسطه فناء ينفتح على الداخل تلتف من حوله الغرف،وهو يعد بمثابة منبعٍ للضوء ومنظمٍ مناخي وصوتي وفي الوقت نفسه منظم للعلاقات الاجتماعية للعائلة.

لقد شكّل هذا التنظيم العمراني ضوابط أخلاقية ووقائية ووفَّر علاقة وطيدة بين التركيب الداخلي وبين الإنسان نفسه،فتقابل جدران الفناء والتصاق المنزل عبر ثلاث جهات مع المنازل المجاورة قلَّص تعرض ساكنيه لأشعة الشمس، ومن ثم التخفيف من تأثير درجة الحرارة صيفاً،كما جعل من وسط الدار خزاناً جيداً للهواء النقي المعتدل الحرارة والرطوبة،وحاجزًا يمنع انسياب الهواء العلوي إلى الغرف،لأنه شبيه بالوعاء فليس له منافذ سفلية تسهل عمليات جريان الهواء وهكذا فإن الجو الخارجي مهما كان شديداً عاصفاً فإنه يبقى يحوم فوق الفناء،ويمضي حاملاً معه حرارته وغباره وملوثاته،وهناك ميزة هندسية أخرى تتمثل في ارتفاع أرضية الغرف عن مستوى أرضية وسط الدار حتى لا يتسرب الهواء أوالغبار إلى داخل البيوت.

ولكي لا يلحق الضرر بالأخرين تطبيقاً لقاعدة لا ضرر ولاضرار،فقد أوجب المشرِّع عدم الارتفاع بالبناء على الجيران،حيث جاءت المساكن متساوية كأسنان المشط في النسيج العمراني للمدن العتيقة،وهو ما شكل وحدة خط السماء،(ينظر الصورة رقم ٠١). فضلاً عن ذلك منع الفقهاء بناء المدابغ والأفران الخاصة بمواد البناء كالآجر والقرميد وغيرهما على مقربة من المساكن،حيث جعلوها في أطراف المدينة،كما منعوا اخراج الشرفات والميازيب على الطرقات.[٢٦] وليس هذا فحسب، بل وضعوا شروطاً لفتح الدروب عرضاً وارتفاعاً،فلم تفتح هكذا عبثاً،فقد حدِّد عرض الدرب اعتماداً على المطية أي الدابة التي يمتطيها الإنسان مع كيسين تحملها عن اليمين والشمال،ومستعملها الذي يمشي بمحاذتها إما عن اليمين أو الشمال وليس راكبا عليها، (ينظر الصورة رقم٠٢). وبالنسبة لارتفاع الدرب، وذلك في عنصر السقيفات التي تعتبر ممراً مسقفاً في

الدروب،فقد حدِّد نفسها الطريقة لكن هذه المرة بالموازاة مع ركوب مالك المطية فوقها،(ينظر الصورة رقم٠٣).

الخاتمة:

كخاتمة بشأن ما تضمنته هذه الورقة البحثية، يمكن القول أن ترتيب استعمال الأراضي داخل المدن العتيقة بما في ذلك عمليات البناء والتعمير قديماً،تميزت بتخطيط عقلاني ومنظَّم راعي الجانب الاجتماعي والاقتصادي،على عكس ما ادعاه بعض المستشرقين الذين عدوه تخطيطاً عشوائياً لا ينطلق من أية قاعدة،مثل ما ذكره المستشرق المسمى كْلُودكَاهَنClaude Kahan قائلاً:"إنه من الخطاء أن نطلق عليها اسم المدينة الإسلامية،الأحرى أن نسميها فقط مدن دار الإسلام"،أي أنه جرَّدها من صفة التمدن والتحضر.

لكن المتحدثين عن أصول العمران الإسلامي وتصميمه أمثال عبد الرحمن بن خلدون في المقدمة وابن الربيع في سلوك المالك في تدبير المالك على التمام والكمال،والقزويني في آثار البلاد وأخبار العباد يشيرون إلى أن المدن الإسلامية انبثقت من تعاليم الدين الإسلامي التي تراعي مبدأ الألفة والحياء واحترام الجار والدفاع عن حرمة المسلم،وكذا من البيئة التي وجدت فيها فاكتست بخصائصها،لذلك يقال من طرف المختصين أن العمارة ابنة بيئتها،انطلاقاً من ذلك كونت المدن الإسلامية شخصيةً عمرانيةً انفردت بها عن باقي مدن العالم من حيث الكم والكيف،وقد كان لكل عنصر معماري أثر فعال في الحياة اليومية لأفراد المجتمع،أي أنه فعلاً كان هناك تخطيط مسبق وعقلاني ومتأصل بأتم ما تحمله الكلمة من معنى.

Conclusion:

As a conclusion about what goes on in this paper, It can be said that the arrangement of land use within ancient cities, including construction and reconstruction, is out of date, It was characterized by a rational planning and a structured social and economic sponsor, Contrary to what some Orientalists claimed, it was a random planning that did not start from any rule, As the

Orientalist Claude Kahan said, "It is a mistake to call it the Islamic city, It is better to call it only the cities of Darul Islam ", In other words, he stripped her of urbanization.

But speakers of the origins and design of Islamic urbanism such as Abdul Rahman bin Khaldun in Elmokadimah,and Ben Rabie in the behavior of the owner in the measure of the owner to perfection, and Elkazwini The Caspian in the antiquities of the country and the news of the people, They point out that Islamic cities emerged One of the teachings of the Islamic religion that takes into account the principle of intimacy and modesty Respect for the neighbor and defend the sanctity of the Muslim, As well as from the environment in which I found Factt characteristics, Therefore it is said by specialists that architecture is the daughter of their environment, Based on this, Islamic cities formed an urban figure that was unique to them from the rest of the world in terms of quantity and quality, Each architectural element has been instrumental in the daily life of members of society, In other words, there was a pre-rational planning that was rooted in the fullest sense of the word.

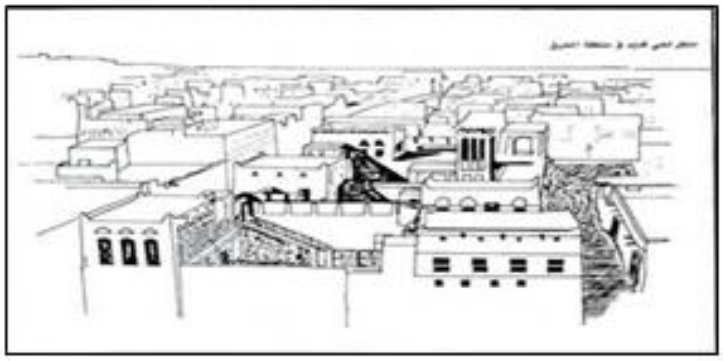

الصورة رقم01:تبين وحدة خط السماء الناتج عن القاعدة الفقهية لا ضرر ولا ضرار.

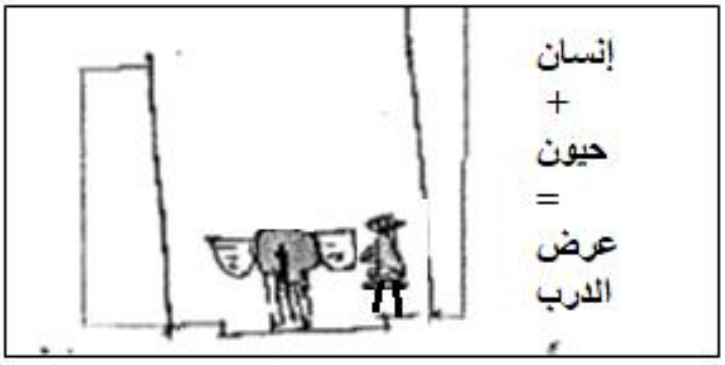

الصورة رقم 02:تبين طريقة تحديد عرض الدرب في المدن الإسلامية الحقيقة،عن رحوي حسين،مرجع سابق،ص:205.

الصورة رقم 03:تبين طريقة تحديد ارتفاع الدرب عند السقيفات في المدن الإسلامية ،عن رحوي حسين،مرجع سابق،ص:205.

قائمة الهوامش:

١-عبد الستار محمد عثمان، المدينة الإسلامية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٧٨، ص:٢٦

٢-عبد الرحمن بن خلدون،المقدمة،تحقيق سهيل زكار،دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،لبنان، ٢٠٠١، ص:٥٤

٣-أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، المعجم الكبير، حقَّقه وأخرج أحاديثه حمدي عبد المجيد السلفي، ج١٢، مكتبة ابن تيمية، رقم الحديث ١٣٤٣٧، القاهرة،١٩٨٣ ، ص:٣٨٩

٤-مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي،القاموس المحيط،تحقيق أنس محمد الشامي وزكريا جابر محمد، دار الحديث،القاهرة،٢٠٠٨،ص: ١٥١٨

٥-أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوَردي البصري،الحاوي الكبير في فقه الإمام الشافعي رضي الله عنه، تحقيق الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد المجيد،ط١،ج٢،دار الكتب العلمية، بيروت ،١٩٩٤،ص:٤٠٧

٦-المقدسي،أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم،ط٣،مكتبة مدبولي،القاهرة،١٩٩١،ص:٤٧

* الأُصْطُمَّة: تكتب بالسين كذلك وهي معظم الشيء ومجتمعَه وتمامه،يُنظر:مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي،مصدر سابق،ص:٩٢٧

٧-ابن منظور،لسان العرب،تحقيق عبد الله_علي الكبير،محمد أحمد حسب الله،هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف القاهرة،(دت) ص:٤١٦١

٨-مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي،مصدر سابق،ص:١٥١٨

٩-زكرياء بن محمد بن محمود القزويني،آثار البلاد وأخبار العباد،دار صادر،بيروت،(دت)، ص:٧-٨

10-Camillo Sitte,L'Art de Batir les Villes,notes et réflexions d'un Architecte, Traduites et complétées par Camille Martin ,édition Atar Corraterie12, Genève, 1889,p:10, In :gallica.bnf.fr

١١-سورة الأنبياء،الآية ٢٢

١٢-سورة إبراهيم،الآية ٣٥

١٣-عبد الرحمن بن خلدون،مصدر سابق،ص:٢١٨-٢١٩

١٤-شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبي الربيع،سلوك المالك في تدبير الممالك،ط١،تحقيق عبد العزيز بن فهد بن عبد العزيز آل سعود،دار العاذرية للنشر والتوزيع،الرياض،٢٠١٠،ص:١٥٢

١٥-المصدر نفسه،ص:١٥٤

*- الشَّعْرَاءُ:ما كان من شجر ملتف في لينٍ من الأرض يحله الناس يستدفئون به شتاءً وستظلون به صيفاً،ينظر:مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي،مصدر سابق،ص:٨٦٧

١٦-أبي عبد الله ابن الأزرق،بدائع السِّلْك في طبائع الملك،ط١،ج٢،تحقيق علي سامي النشَّار،دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة،القاهرة،٢٠٠٨،ص:٦٩٩-٧٠١

١٧-أبو القاسم سعد الله،تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر هجري،ج01، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر 1981،ص: 341

١٨-نقادي سيدي محمد،التصميم العمراني لمدينة تلمسان ودلالته الاجتماعية،رسالة ماجستير،معهد الثقافة الشعبية،جامعة أبي بكر بلقايد ١٩٩١،ص:٥١

١٩-عبد الستار محمد عثمان،مرجع سابق،ص: ١٢

٢٠-نقادي سيدي محمد،مرجع سابق،ص: ٤٤

٢١-أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي،الأحكام السلطانية والولايات الدينية،تحقيق أحمد مبارك البغدادي،ط٠١،مكتبة دار ابن قتيبة،الكويت،١٩٨٩،ص:٣١٥

٢٢-أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني،مصدر سابق،ج٠١،ص:٢٨٠

23-Charle Brosselard,Les Inscriptions Arabes de Tlemcen, In(R)Africaine, 5emmeannée, N°25, Arnolet imprimeur-libraire ,Constantin, Algérie 18٦1, p:16

٢٤-سيدي محمد نقادي،مرجع سابق،ص:٤٥

٢٥-رحوي حسين،العلاقة بين النسيج العمراني والفضاء الاجتماعي الثقافي في المدينة العربية الإسلامية،رسالة ماجستير،معهد الثقافة الشعبية،جامعة تلمسان،٢٠٠١،ص:١٨١

٢٦-عبد الستار محمد عثمان،مرجع سابق،ص:٣١

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.

١- أبي عبد الله ابن الأزرق،بدائع السِّلْك في طبائع الملك،ط١،ج٢،تحقيق علي سامي النشَّار،دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة،القاهرة،٢٠٠٨.

٢- ابن منظور،لسان العرب،تحقيق عبد الله_علي الكبير،محمد أحمد حسب الله،هاشم محمد الشاذلي،دار المعارف القاهرة،(دت).

٣- أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوَردي البصري،الحاوي الكبير في فقه الإمام الشافعي رضي الله عنه،تحقيق الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد المجيد،ط١،ج٢،دار الكتب العلمية،بيروت،١٩٩٤.

٤- أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي،الأحكام السلطانية والولايات الدينية،تحقيق أحمد مبارك البغدادي،ط٠١، مكتبة دار ابن قتيبة،الكويت،١٩٨٩.

٥- أبو القاسم سعد الله،تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر هجري،ج01،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر 1981.

٦- أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني،المعجم الكبير،حقَّقه وأخرج أحاديثه حمدي عبد المجيد السلفي،ج١٢،مكتبة ابن تيمية،رقم الحديث ١٣٤٣٧ القاهرة،١٩٨٣.

٧- رحوي حسين ،العلاقة بين النسيج العمراني والفضاء الاجتماعي الثقافي في المدينة العربية الإسلامية،رسالة ماجستير ،معهد الثقافة الشعبية،جامعة تلمسان،٢٠٠١.

٨- زكرياء بن محمد بن محمود القزويني،آثار البلاد وأخبار العباد،دار صادر،بيروت،(دت).

٩- شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبي الربيع،سلوك المالك في تدبير الممالك،ط١،تحقيق عبد العزيز بن فهد بن عبد العزيز آل سعود،دار العاذرية للنشر والتوزيع،الرياض،٢٠١٠.

١٠- عبد الرحمن بن خلدون،المقدمة،تحقيق سهيل زكار،دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،لبنان، ٢٠٠١,

١١- عبدالستار محمد عثمان،المدينة الإسلامية،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،الكويت، ١٩٧٨.

١٢- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي'القاموس المحيط،تحقيق أنس محمد الشامي وزكريا جابر محمد،دار الحديث،القاهرة،٢٠٠٨.

١٣- المقدسي،أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم،ط٣،مكتبة مدبولي،القاهرة،,١٩٩١

١٤- نقادي سيدي محمد،التصميم العمراني لمدينة تلمسان ودلالته الاجتماعية،رسالة ماجستير،معهد الثقافة الشعبية،جامعة أبي بكر بلقايد ١٩٩١.

-Camillo Sitte,L'Art de Batir les Villes,notes et réflexions d'un Architecte, Traduites et complétées par Camille Martin ,édition Atar Corraterie12,Genève, 1889.In :gallica.bnf.fr

-Charle Brosselard,Les Inscriptions Arabes de Tlemcen, In(R)Africaine ,5emme année,N°25,Arnolet imprimeur-libraire ,Constantin,Algérie 1861.

-The Holy Quran.

-Prophetic tradition.

List of sources and references:

1- Ibn al-Azraq, Badaa wire in the natures of the king, i 1, c 2, the investigation of Ali Sami Nashar, Dar al-Salam for printing, publishing, distribution and translation, Cairo, 2008.

2- Ibn Manzoor, the tongue of the Arabs, the investigation of Abdullah Ali al-Kabir, Mohammed Ahmed Hassaballah, Hashem Mohamed Shazly, Dar al-Maarif Cairo, (SD).

3- Abu Hassan Ali bin Mohammed bin Habib Almawardi Basri, the great container in the jurisprudence of Imam Shafi'i, may Allah be pleased with him, the investigation of Sheikh Ali Mohammed Moawad and Sheikh Adel Ahmed Abdel Majid, I 1, c 2, Scientific Books House, Beirut, 1994

4- Abu al-Hasan Ali bin Mohammed bin Habib al-Mawardi, the rulings of the Sultanate and religious states, the investigation of Ahmed Mubarak al-Baghdadi, i 01, Dar Ibn Qutaiba Library, Kuwait, 1989.

5- Abu al-Qasim Saadallah, Algeria's cultural history from the tenth to fourteenth century AH, c 01, National Company for Publishing and Distribution, Algeria 1981.

6 - Abu al-Qasim Suleiman bin Ahmed al-Tabarani, the great lexicon, achieved and directed his conversations Hamdi Abdul Majid al-Salafi, c 12, Ibn Taymiyyah Library, Hadith number 13437 Cairo, 1983.

7- Rhawi Hussein, The relationship between the urban fabric and the socio-cultural space in the Arab Islamic city, Master Thesis, Institute of Popular Culture, University of Tlemcen, 2001.

8- Zakaria bin Mohammed bin Mahmoud Al-Qazwini, antiquities of the country and the news of the people, Dar Sader, Beirut, (SD).

9- Shihabuddin Ahmed bin Mohammed bin Abi spring, owner behavior in the management of the kingdoms, i 1, the investigation of Abdul Aziz bin Fahd bin Abdul Aziz Al Saud, Dar Al-Azriya for publication and distribution, Riyadh, 2010.

10 -Abdulrahman bin Khaldoun, Introduction, Achieved by Suhail Zakar, Dar Al Fikr for Printing, Publishing and Distribution, Lebanon, 2001.

11- Abdul Sattar Mohammed Othman, Islamic City, National Council for Culture, Arts and Letters, Kuwait, 1978.

12- Nagadi Sidi Mohamed, the urban design of Tlemcen and its social significance, Master Thesis, Institute of Popular Culture, University of Abi Bakr Belkaid 1991.

13- Majd al-Din Muhammad ibn Yaqoob Turquoise Abadi, the dictionary surrounding, the achievement of Anas Mohammed al-Shami and Zakaria Jaber Mohammed, Dar al-Hadith, Cairo, 2008.

- Camillo Sitte, L'Art de Batir les Villes, notes et réflexions d'un Architecte, Traduites et complétées par Camille Martin, édition Atar Corraterie12, Genève, 1889.In: gallica.bnf.fr.

-Charle Brosselard, Les Inscriptions Arabes de Tlemcen, In (R) Africaine, 5emme année, N ° 25, Arnolet imprimeur-libraire, Constantin, Algérie 1861.